مسك العصا من المنتصف

ضرورة قيام الدولة بحماية الأقليات والمعارضات وذلك من أجل توازن المجتمع، ومن أجل منع أي جهة في المجتمع من جر المجتمع خلفها

الباب السادس (9 صفحات) من الفصل 31

من كتاب

سياسات الأمم ولعبة الأقدار

(2010 – رقم:3)

عمر "محمد فؤاد" أبو الرُّب

المراجع في هذا الفصل موجودة في صفحة المراجع في الكتاب الأصل

جميع الحقوق محفوظة

❖ مسك العصا من المنتصف

هناك مبدأ واضح في نظام الجودة (Quality System)وهو أنك لا تستطيع أن تقوم بتثبيت مستوى الجودة وإنما تستطيع أن تضع مستوى الجودة بين حدين مقبولين. وأما مستوى الجودة فإنه سيتأرجح بين هذين الحدين.

لنضع المثال:

لنفترض أن هناك مصنعا للسكر. وأن المصنع يقوم بتعبئة الأكياس بـ ١ كلغ من السكر.

الآن... عندما تقوم بوزن هذه الأكياس فمن النادر أن تجدها ١ كلغ وإنما في الحقيقة هي أقل أو أكثر بنسبة معينة (نسبة الجودة) .

ولنفترض أن نسبة الجودة لهذا المصنع هو ٥٪ فهذا معناه أن وزن الأكياس يتراوح ما بين ٠,٩٥ إلى ١,٠٥ كلغ. وإذا تجاوز وزن الأكياس هذه النسبة فهذا معناه فشل في إدارة الجودة لهذا المصنع.

السؤال الآن: لماذا هو أمر صعب أن يتم تعبئة الأكياس بـ ١ كلغ فقط؟

والجواب هو وجود متغيرات كثيرة من الصعب توقعها أو التحكم فيها كدرجة الحرارة ودرجة الرطوبة واختلافات طفيفة في نوعية السكر..إلخ.

والذي يحدث أن هناك أجهزة تقوم بقياس وزن الأكياس وفي اللحظة التي يتم فيها الانتباه أن وزن الكيس بدأ يقترب من الحد الأعلى فإنه (وبشكل آلي) يتم تخفيض بسيط لمعدل تعبئة السكر وعندما يتم الانتباه إلى أن وزن الكيس بدأ يقترب من الحد الأدنى فإنه يتم زيادة معدل التعبئة. ولكن إذا ظهر أن الوزن قد خرج تماما عن الحدين فإنه يتم إيقاف خط الإنتاج وبحث أسباب المشكلة.

وهذه الظاهرة (تأرجح المستوى بين الحد الأدنى والحد الأعلى) موجودة كذلك في المجتمع. فالمجتمع يتضمن العديد من القوى التي ليست بالضرورة متصارعة ولكنها مختلفة في الاتجاه. فهناك من يهتم بمعرفة أسرار الكون حتى وإن لم يكن لها فائدة واضحة (علماء الطبيعة) وهناك من يهتم بالبحث عن تطبيقات عملية للعلوم (المهندسون) وهناك الزهاد الذين يستمتعون بقضاء الوقت في الذكر والتسبيح والعبادة.

ومن الطبيعي أن يتأرجح مسار المجتمع عبر التاريخ بسبب قوة أو ضعف القوى في المجتمع. والقوى في المجتمع لا تكون مشدودة دائما ولا تكون ضعيفة دائما وإنما هي كذلك تتأرجح عبر التاريخ. وأفضل مثال هو العائلة: فإذا كان الشخص

شديد الزهد والعبادة فربما تجد الحفيد يتصرف بهادية، وإذا كان الشخص يتصرف بهادية فربما تجد الحفيد شديد العبادة.

وكذلك فإن المجتمع يتأرجح بسبب الظروف المحيطة: ففي أوقات الشدة والخوف فإن المجتمع بطبيعته سيتجه نحو شدة العبادة وإذا كان المجتمع في حالة سلم وازدهار فإنه من الطبيعي أن يتجه نحو اللهو والمظاهر.

الآن... لا توجد أي مشكلة في تأرجح المجتمع ما دام التأرجح هو ضمن حدود المعقول. ولكن المشكلة كل المشكلة عندما تسيطر قوة على المجتمع وتجر المجتمع وراءها.

وهذا ما حدث في كثير من المجتمعات. ولنضرب المثال في المجتمع الإسلامي ولقوتين فيه وهي الصوفية (شدة الزهد والعبادة) والاستنارة (الرغبة في معرفة أسرار الكون والتي قادها علماء الطبيعة):

بدأت الصوفية بالظهور وبشكلها المعتدل منذ بداية الـ ٥٠٠هـ وكان من روادها عبد القادر الجيلاني. وكانت الصوفية هي ردة فعل تجاه حالة اللهو والإسراف التي طغت في أواخر العصر العباسي. ثم ازدادت قوة الصوفية مع هجمات الصليبيين والمغول. وقد كان انتشار الصوفية ذا فائدة للعالم الإسلامي، فقد ساعدت في تثبيت المسلمين وقت الخوف كما استطاعت نشر الإسلام عبر القارات دون سلاح.

ولكن المشكلة التي جاءت مع الصوفية هي نظرتها إلى علماء الطبيعة. فقد كانت نظرتهم إلى أن أعمال هؤلاء إنما هي عبث لا فائدة منه ومضيعة وقت. وهذا أدى مع الوقت إلى انحسار الاهتمام بعلوم الطبيعة. ولكن المؤسف أن علوم الهندسة لا يمكنها التطور دون وجود علماء الطبيعة.

وهناك أمر آخر تسببت فيه الصوفية إذ إن شدة التوجه نحو الزهد والعبادة والذكر قد خففت رغبة التنافس عند الناس، وهذا يؤدي مع الوقت إلى جمود

المجتمع. وقد قال الله تعالى: ﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة].

انتبه هنا... المؤلف لا ينتقد قيام الناس بشدة الذكر والزهد والعبادة. وإنما ينتقد سيطرة قوة على أخرى وجر المجتمع وراءها. والمطلوب من المسلم هو الفرائض واجتناب المعاصي وغير ذلك فهو من النفل. وقيام شخص بالدراسة أو القراءة بدلا من صلاة التراويح هو أمر يجب ألا يتم النظر إليه كجريمة؛ لأن التراويح من النفل وليست من الفرائض ولا يحق لأحد انتقاد غيره في النفل. وكذلك قيام الناس بالاعتكاف في المساجد فهو نفل ذو أدلة مؤكدة ولا يحق لأحد انتقاده.

ووجهة نظر المؤلف هنا هو ضرورة وجود آلية في المجتمع والدولة تسمح بتوازن القوى في المجتمع وتمنع إحدى القوى من السيطرة على الأخرى وتمنع إحدى القوى من جر المجتمع وراءها. فقيام الفلاسفة بجر المجتمع وراءهم هو المضرة كل المضرة للمجتمع وكذلك يحصل الضرر إذا قام التجار بجر المجتمع وراءهم وكذلك يحصل الضرر إذا جر الزهاد المجتمع وراءهم.

ما المقصود هنا بآلية؟

الآلية هي خطوات عمل يتم تنفيذها بشكل آلي دون الرجوع إلى المركز. وهذا المصطلح قد استعارته الأدبيات الإدارية من العلوم الهندسية. وأفضل مثال له هو ذيل الطائرة الورقية. فعندما ترتفع الطائرة فإن الذيل يقوم بتخفيف حدة الارتفاع وعندما تنخفض الطائرة فإن الذيل يقوم بتخفيف حدة الانخفاض. وهو بهذا يقوم بالمحافظة على استقرار الطائرة. وكذلك الآليات في مجال الإدارة فهي خطوات يتم تعليمها وترسيخها في الأجهزة الإدارية ويتم تنفيذها عند الحاجة ودون استئذان.

والسؤال هنا: ما هي الآلية التي يمكن ترسيخها في المجتمع والدولة بطريقة تسمح بعمل التوازن في المجتمع وتمنع قوة من السيطرة عليه؟

من النظرة إلى التاريخ فإن مسك العصا من المنتصف (الفلسفة الإنجليزية) تبدو أفضل الفلسفات. وبالطبع فإن الإنجليز قد استخدموا هذه الفلسفة كحق أريد به باطل ولكن نظرة المؤلف هي أن استخدامها في المجتمع الإسلامي يجب أن يكون كحق أريد به الحق.

والآلية المطلوبة في الدولة هي القيام بحماية الأقليات والمعارضة والمنتديات ما دامت لا تخالف النصوص الصريحة في الشرع أو القانون وما دامت غير مؤذية للمجتمع. وما دامت هذه الشروط الثلاثة متوفرة فعلى الدولة حماية هذه المعارضة مهما كانت أجندتها. وليس بالضرورة أن تكون هذه المنتديات سياسية وإنما يمكن أن تكون علمية واجتماعية وفلسفية وروحية..إلخ.

وأما الآلية في المجتمع فهي ترسيخ النفور لثقافة السخرية والازدراء والاستخفاف لأي عمل مشروع (أي العمل الذي لا يخالف الشرع ولا القانون ولا يؤذي الناس). وضمن وجهة نظر المؤلف فإن ثقافة السخرية من الأعمال المشروعة هي أحد الثقافات المهلكة لأي مجتمع.

هذه النقطة بحاجة إلى الأمثلة:

هناك قصة مشهورة عن أحد ملوك بني العباس أن جاءه أحدهم وأسقط خاتما في البئر ثم رما سهما إلى الخاتم فمسكه ثم رما سهما إلى السهم وآخر وآخر إلى أن وصلت سلسلة الأسهم إليه وتناول الخاتم.

وهنا قام الملك بإعطاء الجائزة لهذا الرجل وجلده. وعندما اشتكى الرجل أجابه الملك أن الجائزة للمهارة والجلد لأن هذه المهارة عبث لا فائدة منها.

وقد قوبلت هذه القصة بالثناء والإعجاب والتقدير من الكثير وأصبحت مضرب المثل. ولكن وجهة نظر المؤلف هو أن ما فعله الملك كان حماقة كل الحماقة:

كيف علم الملك أن هذه المهارة غير مفيدة؟؟ فهناك الكثير ممن كان ينظر إلى رمي الكرات (balls Juggling) على أنها عبث ولكن ظهر الآن أنها مفيدة جدا في تقوية التوصيلات بين المخ الأيمن والأيسر.

والسؤال الأهم هو أن كثيراً من ملوك بني العباس كان يستنزف أوقاته في لهو لا يؤدي إلى أية مهارة على الإطلاق. في حين أن ذلك الرجل قد استنزف وقته في أمر نتج عنه مهارة ولم يكن يؤذي أحدا. فمن هو الأولى بالتقريع؟؟

وهناك مثال آخر: فقد قام أحد الباحثين بتأليف كتاب عن أنعلة الرسول عليه السلام. وأخذ بعض الناس بالسخرية من الكتاب وصاحبه. ولكن لا أحد منهم يستطيع أن يضمن أن هذا العمل لن تكون له فائدة.

ثم إن كثيراً من هؤلاء المنتقدين يقضى وقته في المقاهي وشرب الشيشة (الأرجيلة) ولعب الورق (الشّدة) ولعب الطاولة وهي ألعاب لا تؤدي إلى مهارات واضحة (يعني لو كانت اللعبة شطرنج لقلنا برضه فيها مهارة تفكير ومهارة تخطيط ولكن طاولة!!!). والكثير يقضي وقته في مشاهدة مباريات كرة القدم ومنهم من يقضي الساعات في حل الكلمات المتقاطعة ويأليتها معلومات مفيدة وإنما أغلبها أسماء أفلام وفنانين وفنانات.

الآن... من استطاع أن يستنزف وقته بشكل أكثر فائدة؟ هل هو ذلك الباحث الذي استنزف الساعات في البحث والتحليل والكتابة وإنتاج ذلك الكتاب أم أولئك الذين استنزفوا وقتهم في الورق والطاولة ومباريات كرة القدم والكلمات المتقاطعة.

الآلية التي يراها المؤلف ضرورية في المجتمع هي ترسيخ نظرة السماحة والمداراة للأشخاص الذين يقضون وقتهم فيما لا يخالف أحكام الشرع ولا يؤذي الآخرين مهما كانت أعمالهم غريبة أو ظهرت أنها غير مفيدة. وهذا معناه أنه إذا قام أحد بالسخرية والانتقاص من هؤلاء الأشخاص فالمطلوب هو قيام الحاضرين بالوقوف في وجهه وتذكيره أنه ربما يقوم بكثير من أعمال اللهو والتي ليس فيها أي فائدة.

انتبه هنا... المؤلف لا ينتقد الناس الذين يلعبون الورق والطاولة ويتابعون المباريات وإنما انتقد المؤلف الناس الذين يمارسون هذه الأشياء ثم ينتقدون الآخرين بتضييع الوقت. وأما بالنسبة إلى ألعاب الورق والطاولة ومتابعة المباريات فقد كانت

والدتي تقول: "نوم الظالمين عبادة". وعلى نفس الوزن فإن انشغال الكثير من الناس بالورق والطاولة والمباريات هو أفضل من انشغالهم في أمور أخرى كالقيل والقال.

وهذه نقطة تستحق الانتباه:

ليس كل الناس فلاسفة ولا شديدي العبادة ولا علماء طبيعة ولا أصحاب هوايات. ولهذا فإنه من الحكمة للمجتمع أن يقوم بالسماحة والرعاية لكل اتجاه مقبول وكافٍ لإشغال وقت الناس. وهذا معناه أندية علمية واجتماعية وفلسفية ومباريات ورياضات ومسابقات..إلخ.

وفي واقع الحال فإن المجتمع إذا لم يقم بنفسه بفتح منافذ مقبولة لتفريغ طاقة الناس واستنزاف أوقات الفراغ عندهم فإن الذي سيحدث هو أن الناس أنفسهم سيخلقون هذه المنافذ. وغالب الأحيان فإن هذه المنافذ تكون مضرة. وأحد أول المنافذ التي سيقوم الناس بفتحها (إن لم يجدوا منافذ أخرى) هو استنزاف الوقت في القيل والقال والاستغابات والهمس واللمز والهمز.

وهناك مثال يضع فائدة واضحة في قيام الدولة والمجتمع بحماية المعارضة:

أحد أكثر الأمور استنزافا للوقت في العالم الإسلامي اليوم هو كثرة الالتزامات الاجتماعية. فالالتزامات الاجتماعية المتعلقة بالأفراح والأتراح والأعياد والمناسبات كثيرة جدا، ومن يعتذر عنها أو لا يلتزم بها فإنه يواجه بالسخرية والانتقاد. ولكن الالتزام بجميع المناسبات الاجتماعية معناه عدم وجود الطاقة والوقت للمطالعة وتطوير المهارات.

الآن... ضمن دولة ومجتمع يتمتع بسماحة ورعاية للمعارضة فإنه من السهولة لبعض الناس الانتباه لعواقب الالتزامات الاجتماعية وهذا سيؤدي إلى خلق أحزاب ومنتديات تدعو إلى التخفيف من هذه الالتزامات وتحض الناس على الاعتذار عن الكثير منها. وهذا سيقوم بإعطاء النافذة الأدبية للكثير من الناس (والذين يرغبون بوقت إضافي للمطالعة والدراسة وتطوير المهارات) للاعتذار دون خوف أو حرج.

وهذا هو بالضبط المقصود بالآلية. وهذه الآلية هي التي تقوم بعمل التوازن في قوى المجتمع ومنع قوة من السيطرة على كل المجتمع. فالالتزامات الاجتماعية أصبحت قوة حقيقية تجر المجتمع وراءها. وأصبحت تسبب الكثير من الصداع واستنزاف الوقت والمال. ومن المناسب جدا ظهور قوة أخرى توازنها وتعيدها إلى حجمها الطبيعي.

وتوجد نقطة فرعية هنا متعلقة ببطش الدولة:

من الطبيعي أن تكون الدولة حازمة فيما يتعلق بالأحكام الواضحة من الشرع وأحكام القانون. ولكن فيما عدا ذلك فالأولى (ضمن وجهة نظر المؤلف) هو التعامل بالحكمة.

دعونا نضرب المثل:

لنفترض أن المراهقين قد بدأوا بتصرفات أو موضات غير مريحة في المجتمع. أو لنفترض أن هناك جماعة تدعو إلى أمور ليست مخالفة للأحكام الواضحة في الشرع ولكنها (هذه الأمور) لا يقبلها المجتمع. فما هو موقف الدولة؟

ضمن وجهة نظر المؤلف فإنه من الخطأ الشديد أن تقوم الدولة ابتداءً بالحزم أو البطش، وإنما يجب أن تعالج الأمر بالحكمة والموعظة وذلك للأسباب التالية:

١- الدولة لا تعلم يقينا أن ما يتصرفه المراهقون أو ما تدعو اليه الجماعة هو أمر غير مفيد؟ ولهذا فإنه من المفيد النظر إلى الموضوع ببرودة أعصاب وحكمة.

٢- قد تكون أعمال المراهقين أو دعوة الجماعة هي عوارض لأسباب أخرى غير واضحة. والمشكلة في حل العوارض قبل الانتباه للأسباب أن الأسباب قد تؤدي إلى خلق عوارض أخرى أشد ضررا من العوارض السابقة. وهذا أمر واضح في الطب فإن محاولة حل عوارض المرض قد تسبب نشوء عوارض أخرى أشد خطراً.

٢- من الخطأ الشديد للدولة أن تقوم بترسيخ ثقافة الشاكوش (المطرقة) في المجتمع. وثقافة الشاكوش تحدث عندما ينتبه شخص إلى نجاح الشاكوش في حل مشكلة ويقتنع في وجدانه أن أي مشكلة يمكن حلها بالشاكوش. وهذا الشخص بالتأكيد سيكون نجارا فاشلا. وهذا كذلك ينطبق على الدولة، فإذا قامت الدولة بحل جميع مشاكلها بالحزم والبطش فهذا سيؤدي إلى ترسيخ ثقافة الشاكوش في المجتمع وعواقب هذه الثقافة وخيمة.

٤- هناك إمكانيات عند الدولة ليست موجودة عند المراهقين والجماعات وهي ماكينة الإعلام والخبراء والأموال والقدرة على التخطيط طويل المدى.

وبالطبع فإذا استفحلت الأمور خارج دائرة المعقول فإن الدولة بحاجة إلى أن تتصرف بحزم وبطش ولكن هذا معناه أن الدولة فشلت تماما في الانتباه والتخطيط. وهذا معناه ضرورة بحث أسباب هذا الفشل والمسئولين عنه.

والنقطة هنا أن الدولة بحاجة إلى أن تتصرف بالحزم في الأمور المخالفة للأمور الواضحة من أحكام الشرع والقانون. ولكن في أي أمر له شبهة من الشرع فإن الدولة عليها أن تنظر إليه بطول البال وبرودة الأعصاب والحكمة.

وأحد أهم دروس التاريخ أنه لا الدولة ولا المجتمع ولا العلماء ولا الخبراء ولا القادة قادرين على التمييز اليقيني بين الأمور المفيدة والأمور غير المفيدة. وهناك الكثير من الأمور ظنها الناس عبثاً ومضيعة وقت ولكن ظهر لاحقا (وربما بعد قرون) شدة الفائدة منها.

ولهذا السبب فهذه دعوة من المؤلف لمسح وإلغاء العبارة التي يرددها الكثير من الناس: "هذا علم لا ينفع وجهل لا يضر". فهذه العبارة خاطئة تماما والذي يقولها لا يعلم يقينا صدقها.

وبالطبع فهذه ليست دعوة إلى الناس أن يقوموا بالبحث والدراسة في كل أمر وإنما هي دعوة ألا يقوموا بالانتقاد والسخرية من الذين تطوعوا للبحث والتحليل.